مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

تيك توك والمرآة الأمريكية

الرأسمالية السلوكية والمراقبة وصراع السيادة الرقمية

محمد بن ساري الزعبي*

باحث

مركز الخليج للأبحاث

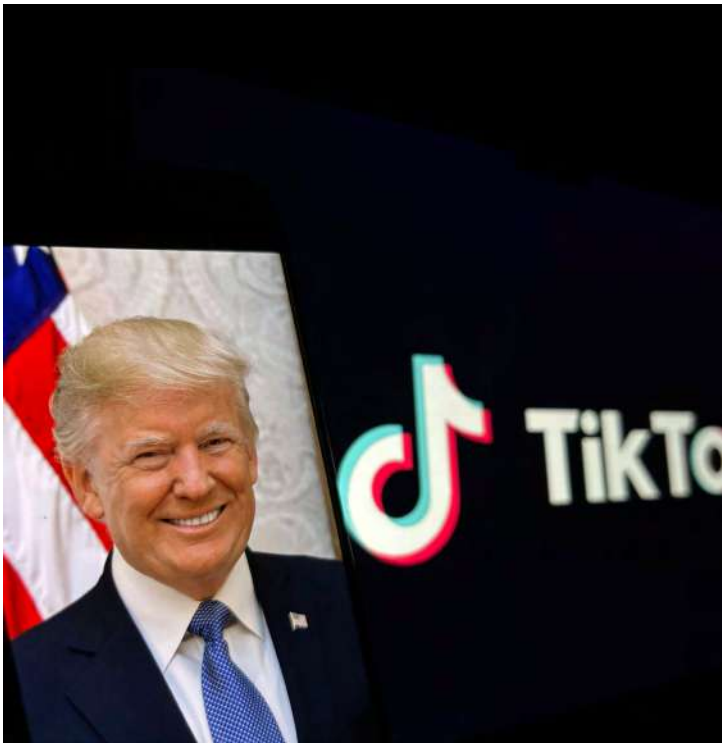

أعادت الضجة الأخيرة حول ملكية تيك توك في الولايات المتحدة إشعال المخاوف المألوفة بشأن الأمن القومي والنفوذ الأجنبي، والأهم من كل ذلك، المراقبة. وتكمن وراء جلسات الاستماع، ونقاشات سحب الاستثمارات، مواقف جيوسياسية، أعمق وأكثر إزعاجًا تتمثل بأن تيك توك ليس استثناء، بل مرآة. ولا يكشف هذا الجدل عن أخطار تطبيق واحد تملكه شركة صينية فحسب، بل يكشف عن بنية "الرأسمالية السلوكية" (Behavioral Capitalism)، وهو مفهوم يصف مرحلة جديدة من الرأسمالية، حيث يصبح السلوك البشري بحد ذاته المادة الخام الأساسية للإنتاج الاقتصادي والربح والسيطرة. وتتجاوز هذه الرأسمالية شبيهاتها الصناعية أو المعلوماتية التقليدية، بتحويل أفعال الناس ومشاعرهم وتفاعلاتهم إلى بيانات قابلة للقياس والتنبؤ والتحويل إلى أموال. تشكّل الرأسمالية السلوكية الآن هي واحداً من أهم أسس الاقتصاد الرقمي الأمريكي بأكمله، وبنية تستغل الاهتمام وتتنبأ بالسلوك وتشكل بدقة التجربة الإنسانية اليومية.

عندما يصف صُنّاع السياسات تيك توك بأنه تهديد للأمن القومي، فهم مُحقون. لكن نادرًا ما يُقرّون أن ديناميكيات المراقبة نفسها التي يُدينونها موجودة بالفعل داخل النظام التكنولوجي الأمريكي نفسه، محليًا، وقانونيًا، والأهم أنها مربحة.

على مدار العقدين الماضيين، ابتكرت شركات التكنولوجيا الأمريكية نموذجًا للربح لا يعتمد على بيع المنتجات، بل على استخراج البيانات السلوكية. وأصبح كل استعلام بحث، وإشارة موقع، ومسحة إلكترونية، نقطة بيانات في بنية تحتية تنبؤية ضخمة مصممة للتنبؤ بالسلوك البشري والتأثير عليه، وربما تغييره. لقد أصبحت الولايات المتحدة مهد الرأسمالية السلوكية، وهي اندماج غير تقليدي بين الإدراك البشري وتحويله إلى سلعة، والنظام التجاري، حيث تُستمد القيمة من القدرة على مراقبة الخيارات وتحليلها وتوجيهها.

بخلاف أوروبا، التي كرّست الخصوصية كحق مدني، تسامحت واشنطن مع هذا التطور، وتعاملت مع التحول الرقمي من منظور الابتكار وحرية السوق. لقد سمحت هذه البيئة المتساهلة لعدد قليل من الشركات بتجميع قوة توجيه سلوكي غير مسبوقة، وشركات تُشكّل الآن الخطاب العام، والاستقطاب السياسي، وحتى الهوية الشخصية.

معضلة تيك توك: عندما تصبح المراقبة عالمية

يُبرز صعود تيك توك كيف تصطدم الرأسمالية السلوكية بالجغرافيا السياسية. وقد كان نجاح التطبيق في السوق الأمريكية مذهلاً، فقد استحوذ على اهتمام أكثر من ١٧٠ مليون أمريكي، وخاصة الشباب، ليصبح وسيلة رئيسية للثقافة والتجارة والتداول في

السياسة، لكن الميزات التي تجعل تيك توك منصة إدمانية، هي خوارزميته شديدة التخصيص، ودقته في القراءة السلوكية، وقدرته على توقع ما سيشاهده المستخدمون تاليًا، وهي تحديدا ما يجعله خطيرا من منظور الأمن القومي.

تجمع شركة بايت دانس، الشركة الأم لتيك توك، كما هائلًا من البيانات السلوكية من إيقاعات ضغطات المفاتيح، وأنماط الوجوه والأصوات، وسجلات المواقع، ومقاييس التفاعل التي لا تكشف فقط عما يفعله المستخدمون، بل أيضًا ما يُحتمل أن يفعلوه تاليا. وتُشكّل هذه البيانات، عند تجميعها، خريطة للإدراك الأمريكي ومختبرًا حيًا للحالات المزاجية والتفضيلات ونقاط الضعف.

يمثل ذلك مسؤولياً استراتيجياً للمسؤولين الأمريكيين. ففي أيدي قوة أجنبية، قد تُمكن هذه البيانات من عمليات التأثير، والتنميط النفسي، أو التلاعب السياسي على نطاق واسع. ومن هنا جاءت الدعوات إلى البيع القسري، أو التخارج، أو الحظر التام. ومن الأمور المُقلقة بنفس القدر، ماهية وتركيبة الخوارزمية نفسها، تلك البنية الخفية التي تنظم المحتوى الذي يراه المستخدمون وتؤثر عليهم من خلاله. وإذا كانت البيانات هي وقود الرأسمالية السلوكية، فإن خوارزمية تيك توك هي النار التي تشعله.

ومن خلال تحسين التفاعل، يُمكن لتيك توك تضخيم الغضب أو المشاعر أو سرديات محددة. كما يمكن استغلال ذلك في السياقات المُعادية، ليس من خلال الدعاية العلنية، ولكن من خلال التنظيم الدقيق لما ينتشر بسرعة وما يختفي. لقد أصبح تطبيق تيك توك في الواقع، أداة للدبلوماسية الخوارزمية، وهي منصة عالمية تمتلك القدرة على توجيه الانتباه وتغيير الثقافة والمحادثة المفتوحة العابرة للحدود.

يكمن الحل السائد في واشنطن بإصلاح نظام الملكية، وإجبار بايت دانس على بيع عمليات تيك توك في الولايات المتحدة لمشتر أمريكي، لكن هذا النقاش يغفل عن جوهر المسألة، فتغيير اسم المنصة لا يغير منطق تشغيلها. ستظل آليات تيك توك الأساسية كامنة في استخراج البيانات السلوكية، وزيادة التفاعل، وبيع مخزون البيانات التنبؤية، على حالها. ولن تنتهي المراقبة؛ بل ستُعاد إلى موطنها فحسب، ومن الممكن بدل أن تكون وطنية فقط، أن تتوسع لتكون عالمية غير محدودة. إن الوهم بأن الملكية الأجنبية هي المصدر الوحيد للمخاطر يُعمي الولايات المتحدة عن حقيقة أكثر إزعاجًا متمثلة بأن الحالة التقنية المحلية تعتمد على نفس منطق الاستغلال السلوكي.

في الواقع، لا تأتي المراقبة الأكثر تدخلاً للمواطنين الأمريكيين اليوم من حكومات أجنبية، بل من شركات محلية تعرف منصاتها أين يذهب الناس، وماذا يشترون، وكيف يفكرون. تُسلّط مسألة تيك توك الضوء على تناقض هيكلي في النظام الرقمي الأمريكي، فنماذج الأعمال التي تُولّد أرباحًا للشركات هي نفسها التي تُولّد الآن اضمحلالاً للأمن القومي.

لقد خلقت بنية الرأسمالية السلوكية نقطة ضعف ثلاثية تتمثل بما يلي:

١. ضعف معرفي، حيث يتعرض المواطنون للتلاعب المستمر من قِبَل أنظمة مُحسّنة للمشاركة.

٢. ضعف مؤسسي، حيث تعتمد الحكومة نفسها على بنية تحتية رقمية خاصة لا تستطيع تنظيمها أو تدقيقها بالكامل.

٣. ضعف استراتيجي، حيث يستغل الخصوم آليات جذب الانتباه نفسها للتسلل إلى الخطاب الأمريكي.

مستقبل المراقبة: عندما يُصبح تيك توك أسلوب حياة

حتى لو تم الاستحواذ على تيك توك، فإن نموذجه الأساسي سيستمر. لن يتوقف مستقبل المراقبة في الولايات المتحدة على جنسية شركة واحدة، بل على الإطار التنظيمي والأخلاقي الذي يحكم جميع المنصات. تعمل جميع شركات التكنولوجيا الأمريكية الكبرى الآن في ظل الحوافز نفسها من التنبؤ بالسلوك البشري وإعادة تشكيله وتحقيق الربح منه. كما تُعدّ تقنيات التعرف على الوجه، وأجهزة الاستشعار البيومترية، والأجهزة الذكية، والذكاء الاصطناعي التوليدي طبقات إضافية في هذا النظام، حيث تُفاقم ممارسات مراقبة السلوك البشري، وجمع البيانات حوله لتشمل كافة تفاصيل الحياة اليومية. لذا، يطرح نقاش تيك توك سؤالاً حضارياً أوسع:

هل تستطيع الولايات المتحدة الحفاظ على طابعها الديمقراطي في عالم تُمارس فيه السلطة من خلال الإدارة السلوكية المستمرة التي تُدار من قبل الشركات التقنية الكبرى (مثل: ميتا؛ أمازون؛ إكس؛ الخ)؟»

مفترق طرق أخلاقي

يعتبر الجدل الدائر حول تيك توك، في جوهره، جدلاً حول التعريف الأمريكي للحرية. فهل ستظل الحرية مفهوماً تقليدياً يخلق فضاءً نجحت الشركات التقنية الكبرى في استثماره لجمع البيانات عن سلوك، وتوجهات، ومشاعر الأفراد ما يضعهم في تبعية رقمية دون وعي، أم ستتطور إلى المطالبة بوضع تشريعات لحماية الأفراد والمجتمع من ممارسات المراقبة، والتنبؤ السلوكي، والتأثير المستمر؟

إذا ساد الخيار الأول، فسيكون شراء تيك توك رمزيًا في أحسن الأحوال، حيث ستستمر قوة المنصة، ولكن تحت راية مختلفة. وإذا ساد الخيار الثاني، فقد يقود المجتمع الأمريكي نهضة ديمقراطية في الحوكمة الرقمية. والتحدي مُلحّ لأن الحدود لم تعد جغرافية؛ بل معرفية. ولن يكون الصراع القادم على النفوذ العالمي على الأرض أو الأيديولوجية، بل على القدرة على تشكيل الإدراك العام.

> **لن يتوقف مستقبل المراقبة في الولايات المتحدة على جنسية شركة واحدة، بل على الإطار التنظيمي والأخلاقي الذي يحكم جميع المنصات**

الخاتمة

قصة تيك توك في نهاية المطاف، قصة أمريكا، وهي تعكس كيف تواجه دولةٌ كانت رائدةً في الدعوة إلى بناء الحرية الرقمية عواقب ابتكارها الخاص. ستظل نقاشات الملكية ومراجعات الأمن تتصدر عناوين الأخبار، لكن السؤال الحقيقي أكبر وأكثر ديمومة وهو: هل تستطيع الولايات المتحدة استعادة القدرة البشرية على التصرف في الأنظمة التي بنتها لتمكينها؟ لن تحدد الإجابة مصير تطبيق واحد فحسب، بل ستُحدد كذلك طابع الديمقراطية الأمريكية في العصر الرقمي

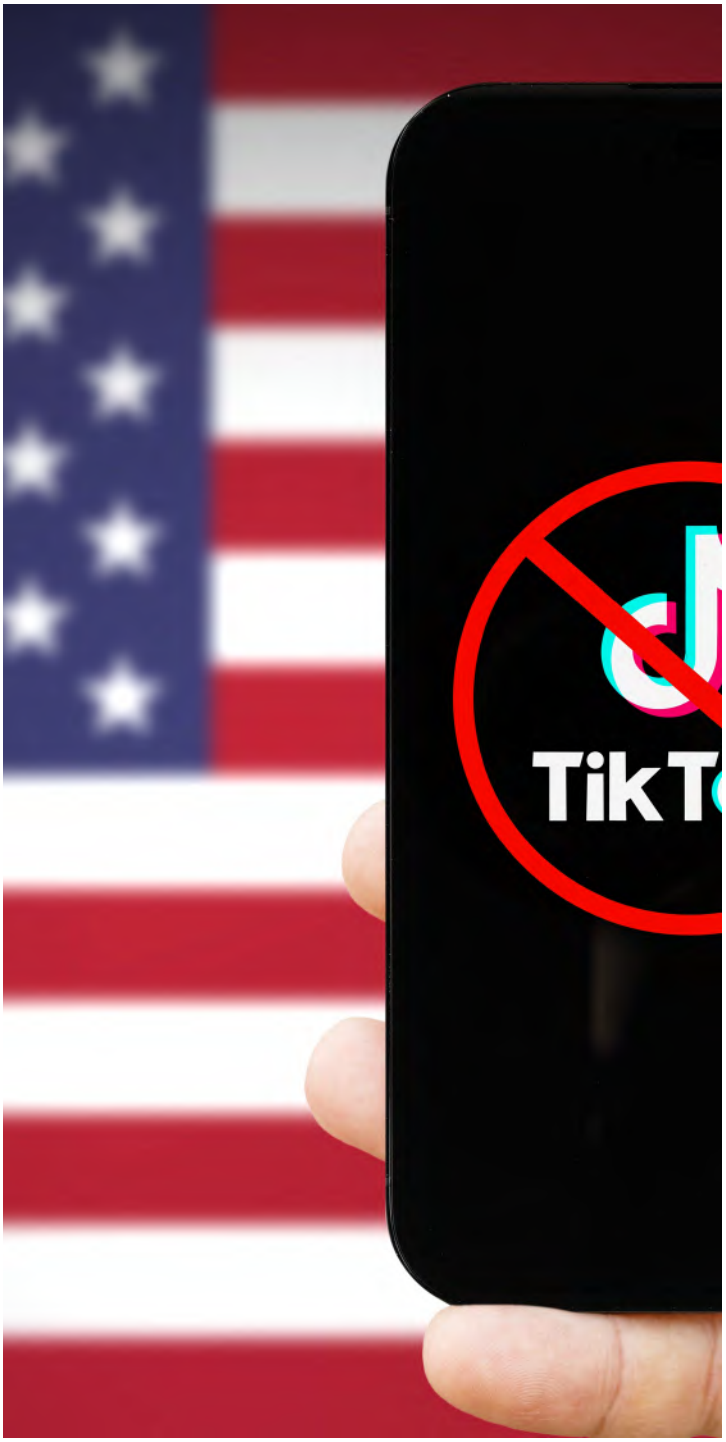

يعتبر الجدل الدائر حول تيك توك، في جوهره، جدلاً حول التعريف الأمريكي للحرية. فهل ستظل الحرية مفهوماً تقليدياً يخلق فضاءً نجحت الشركات التقنية الكبرى في استثماره لجمع البيانات عن سلوك، وتوجهات، ومشاعر الأفراد ما يضعهم في تبعية رقمية دون وعي، أم ستتطور إلى المطالبة بوضع تشريعات لحماية الأفراد والمجتمع من ممارسات المراقبة، والتنبؤ السلوكي، والتأثير المستمر؟

*محمد بن ساري الزعبي: باحث في مركز الخليج للأبحاث، ومؤلف كتاب "الأنظمة العالمية فوق القطبية: قراءة في الأنماط والسمات الاقتصادية، والأمنية، والرقمية الناشئة في النظام الدولي"

Gulf Research Center
Knowledge for All

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

يعبر هذا المقال عن أفكار وآراء الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

4th Floor
Avenue de
Cortenbergh 89
1000 Brussels
Belgium
grcb@grc.net
+32 2 251 41 64